الفهرست

الصفحة

وحدانية الله ٥
الله ٦
التوحيد ٨
التوحيد فى القرآن ٨
التوحيد فى الخلق والأمر ٨
ادلة القرآن على التوحيد فى الخلق والامر ١٠
العلل والاسباب ــ تقويمها ودورها ١٣
الله السبب والمسبب ١٤
المعاجز والاحداث الخارقة للعادة فى نظر القرآن ١٥
معرفة العلة بعيدا عن الظنون الموهومة ١٧
التوحيد فى العبادات ٢٢
التوحيد فى الولاء والطاعة ٢٦
التسليم بامر الله ووحيه وتجنب التفرقة فى صفوف الموحدين ٢٨
التوحيد الذاتى «لامثيل له ولانظير» ٣٠
المقصود من «لامثيل له» و «لانظير له» ٣٠
التوحيد العددى ٣٣
الوحدة الشخصية ٣٣
وجه آخر من «التوحيد الذاتى» ٣٥
النتيجة ٣٥

وحدانية اللّه

تستند الهيات القرآن على «وحدانية اللّه» اكثر من استنادها على شيء آخر، وشعار القرآن الأول هو لااله الااللّه.

يتكرر هذا الشعار فى القرآن اكثر من ستين مرة فى عبارات متنوعة، حتى انه يرد فى هذه الآية القصيرة مرتين:

«شهد اللّه أنه لا اله الاّ هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الاّ هو العزيز الحكيم.»

واليكم فيما يلى مسردا بمختلف الآيات التى تضم هذا الشعار:

«لا اله الاّ اللّه» (الصافات /٣٥)

«لا اله الاّ هو» (البقرة /١٦٣)

«لا اله الاّ أنت» (الانبياء/٢١)

«لا اله الاّ أنا» (النحل /٣)

«ما من اله الاّ اللّه»

«ما من اله الاّ اله واحد» (المائدة/٧٣)

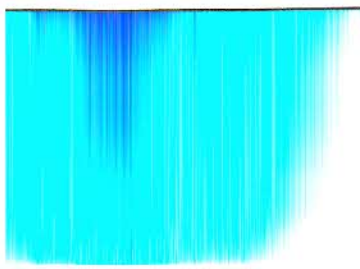

«ما لكم من الله غيره»	(الاعراف/٦٥)
«ما كان معه من اله»	(الاحزاب/٩١)
«انّما اللّه إلٰه احد»	(النساء/١٧١)
«انما الهكم اله واحد»	(الكهف/١١٠)
«انّما الهكم اللّه»	(طه/٩٨)
«انّما هو اله واحد»	(الانعام/١٩)
«الهكم اله واحد»	(البقرة/١٦٣)
«انّ الهكم لواحد»	(الصافات/٤)
«هو اللّه أحد»	(الاخلاص/١)

اللّه

في العربية كلمتان متقاربتان في المعنى اشد التقارب، ولكن ينبغي ألا يختلطا معا، الأولى «اله» والثانية «اللّه».

«اله» اسم عـام يترجم في الفارسية الى «خُدا»، وكما اننا نستطيع ان نجمع الكلمة الفارسية الى «خدايان» نستطيع ان نجمع الكلمة العربية الى «آلهة».

ولكن «اللّه» اسم خاص يترجم في الفارسية الى «خدا»، «خداوند»، «يزدان» و «ايزد»[1]

---

١ — ترى الى اى مدى يصح استعمال «ايزد» و «يزدان» لترجمة «اللّه»، و يصح انطباقهما على معنى «اللّه»؟

وعليه فينبغى ان نقول ان للفظة «خدا» فى الفارسية استعمالين: الاول اسم عام يجمع، والآخر اسم خاص لخالق العالم، ولاجمع له. وفى الا نجليزية التفاتة طريفة بخصوص اللفظة الدالة على اللّه، وهى god ، فهم يكتبونها بهيئتين، فى الأولى تبدأ الكلمة بالحرف الكبير God ، وتعنى اللّه او «خدا» باعتبارها اسما خاصا، والاخرى تكتب بحرف صغير وتعنى «اله» او «خدا» الفارسية باعتبارها اسما عاما.

يستفاد من القرآن ومن الخطب والاشعار المدونة فى التاريخ عما قبل الاسلام ان العرب كانوا يعرفون «اللّه» خالقا للكون و يستعملون اللفظة نفسها له. وعليه فان لفظة «اللّه» عند العرب قبل الاسلام كانت تختص بخالق الكون.

كما ان «اللات» و «العزى» و «منات» و «يغوث» وغيرها كانت اسماء خاصة بآلهة اخرى.

لعل «الاسم الخاص» الدال على «خالق العالم» ظهر فى غضون كلام العرب على الخالق والبحث بشأنه فكانوا يستعملون لفظة «الأَلَه» للاشارة الى «اللّه»، فقد كانت الألف واللام عهدية اى «ذلك الاله الذى نعهده». ومن ثم تدرج استعمال لفظة «الأَلَه» فى الحوار اليومي ليختص باللّه الخالق. وبمرور الزمان حذفت الهمزة من بين لامي «الأَلَه» وظهرت كلمة «اللّه» كلفظة جديدة واسم خاص للدلالة على ←

جاء فى قاموس (معين) بهذا الخصوص:

«ايزد Izad » (يزدYazd) ـ ١ـخرشته،=ملك،ضح فى الديانة الزدشتية وتطلق على طبقة من الملائكة ادنى رتبة من «امشاسپند». ان عدد الايزدين كثير، و يقسمون الى قسمين: «سماوى» و «دنيوى و يأتى «آهورمزدا»على رأس الأيزدين. ولفظة يزدان جمع، و مفردها «يزد» ولكنها تستعمل فى الفهلوية والفارسية بمكان المفرد، وتعنى اللّه.

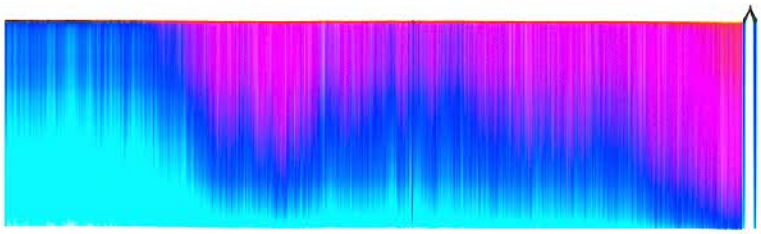

الخالق.

التوحيد

التوحيد يعنى القول بالوحدانية عموما، وفى الاصطلاح هو القول بوحدانية اللّه مبدأ الوجود، والاعتقادبأنه الواحدالأحدمن جميع الجهات، جهة الذات، وجهة الخلق، وجهة ادارة الوجود وجهة الربوبية والعبادة، وجهة التوسل اليه، وجهات اخرى كثيرة.

التوحيد في القرآن

تتناول آيات التوحيد فى القرآن، اكثر ما تتناول التوحيد في الخلق والتوحيد في عبادة «الواحد الأحد» واطاعته. يبدأ القرآن اول الأمر بلفت نظر الانسان الى «وحدانية الخالق» و «وحدانية الصانع». وبعد ان يوضح ان معنى «الخلق والأمر» هو ان خلق الكون وادارة عجلته وحكمه امور يختص بها اللّه، يستنتج من ذلكان العبادة تختص به ايضا.

التوحيد في الخلق والأمر

ان الآيات الأول من القرآن التي نزلت على رسول الاسلام (ص) لتبلغه رسالة التوحيد التى وضع على عاتقه امر ابلاغها للناس، تبدأ بالخلق والأمر:

«اقرأباسم ربّكالّذى خلق. خلق الأنسان من علق. اقرأ وربّك الأكرم. الّذى علم بالقلم علّم الانسان مالم يعلم» (العلق: ١ـ٥)

يستفاد من أيات القرآن ان العرب عبدة الاصنام كانوا يعتقدون بالتوحيد فى الخلق والأمر او كانوا، فى الأقل،مستعدين لتقبله.

«ولئن سألتهم من خلق السّموات والآرض وسخر الشّمس والقمر ليقولن اللّه فأنى يؤفكون.» (العنكبوت: ٦١)

كذلك الآيات ١٦ من سورة لقمان، والأيات ١٠—١٤ و ٨٨ من سورة الزخرف تتناول هذا الموضوع ايضا.

ولكن كان هناك ، فى الوقت نفسه، اناس لم يكونوا يعرفون شيئا عن «التوحيد فى الخلق و الأمر» فيطالبهم القرآن بان يذكروا اي معبود آخر له يد في «الخلق» وفي «ادارة العالم».

«خلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم. هذا خلق اللّه فارونى ماذا خلق الذين من دونه بل الضالمون فى ضلال مبين.» (لقمان:١٠ و١١)

«قل أرأيتم شركاء كم الذين تدعون من دون اللّه ارونى ماذا خلقوا من الارض أم لهم شرك في السموات أم أتينا هم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الضالمون بعضهم بعضا إلا غرورا. ان اللّه يمسك السسموات والارض ان تزولا ولئن زالتا ان امسكها من احد من بعده انه كان حليما غفورا.» (الفاطر: ٤٠ و ٤١)

ويهيب القرآن بالذين يشكون فى ضعف الآلهة الكاذبة بأن يفكروا قليلا لتتضح لهم هذه الحقيقة البينة.

«قل من رب السموات والارض قل اللّه قل أفاتخذتم من دونه اولياء لا يملكون لانفسهم نفعا ولاضرا قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوالله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل اللّه خالق كل شيء وهوالواحد القهار.» (الرعد: ١٦)

وكذلك الذين لايبلغ تفكير هم المستوى الصحيح، يطلب منهم القرآن ان يستمعوا الى هذا المثل البسيط:

«يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون اللّه لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب. ماقدروا اللّه حق قدرة ان اللّه لقوي عز يز.»

(الحج: ٧٤ و٧٥)

والآيات ٤٠ من سورة الروم، والآيات ١—٤ من سورة الفرقان، والآية ٣ من سورة الفاطر، والآية ٣٩ من سورة الزمر، كلها تدور حول الخلق والأمر، وتر يدنا ان نفكر تفكيرا صحيحا، و بعد ان يتضح لنا، بوساطة التفكير الصحيح والمنطق، ان الخلق والأمر يختصان باللّه، يثبت لنا انه هو وحده المختص بالعبادة ايضا. ان الآية ٥٤ من سورة الاعراف تنادى:

«ان ربكم اللّه الذي خلق السموات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك اللّه رب العالمين»

ادلة القرآن على التوحيد في الخلق والأمر

يعرض القرآن النظام المتسق والمتماسك والموحد فى كل ارجاء العالم برهانا واضحا على وحدانية الخالق والآمر المهيمن على الكون، و يدعونا الى ان نتعقل هذا النظام الشامل السليم للايمان بالتوحيد في الخلق والأمر:

«اِلهكم اله واحد لااله الا هو الرحمن الرحيم ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجري في البحر بما ينفع الناس

وما انزل اللّه من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون»

(البقرة: ١٦٢—١٦٤)

و يطرح القرآن فرضية وجود اكثر من اله واحد و يدحضها:

«ما اتخذ اللّه من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان اللّه عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون.» (المؤمنون: ٩١و٩٢)

لوكان للعالم آلهة متعددة، لكان ارتباط هذه الآلهة بالعالم على احدى الصور التالية:

منها ان كل واحد من هذه الآلهة كان يسيطر على جزء من العالم يأتمر بأمره، ذلك الجزء الذى خلقه هو. وعليه فسيسود فى كل جزء نظام مستقل عن النظام السائد في الجزء الآخر و بدون اي ارتباط فيما بينها، ولكننا نرى ان النظام الذى يسود العالم نظام واحد متسق مترابط.

منها ايضا ان واحدا من بين هذه الآلهة والحكام المحليين يكون حاكما على الآخرين، فيسبغ عليهم لونا من الوحدة والانسجام العام. في هذه الحالة يكون هذا هو الوحيد الذي يحكم فعلا على العالم، و يكون الآخرون منفذين لاوامره.

وهناك ايضا احتمال ان يكون كل الّه من هذه الآلهة يرى انه يسيطر على العالم كله وحده دون منازع، وانه يستطيع ان يأمر و ينهى على هواه. وفي هذه الحالة ينتهي امر العالم الى الهرج والمرج ولايبقى نظام وقانون، كما يقول القرآن:

«لوكان فيها الهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون.» (الانبياء: ٢٢)

وعليه، فان وحدة العالم وشمولية النظام المسيطر عليه تدحض نظرية تعدد الآلهة وتعدد مناطق النفوذ، او تعدد الآلهة فى عالم واحد.

اما فرضية وجود الهين أو اكثر يحكمون العالم مشتركين في انسجام ووفاق، متوحدة ارادتهم ومتطابقة اوامرهم، فانها فرضية خيالية، وذلك لان مجرد وجود الهين او اكثر يستوجب حتما ألا يتفق احدهما مع الآخر فى امر من الامور، وهذا يؤدي، ولاريب، الى اختلاف ارادته وامره.

يشير صدرالمتألهين فى (الاسفار) الى هذه الآيات ومافيها من استدلال ويقول:

«الوسيلة الاخرى لاثبات وحدانية الله فى ربوبيته وحكمه هو وحدة الكون التي لا تتجزأ، وهذه هي الوسيلة التي ادركها معلم المشائين، ارسطوطاليس، واشار اليها فى كتاب (الالهيات)»

(الاسفار: ٦/٩٤)

ويعود فى الجزء الخامس ص٣٤٧—٣٤٨ الى الموضوع نفسه فيقول: «...وعلى هذا فان دائرة الوجود دائرة واحدة تتلاقى اقواسها وترتبط مع بعض، وهى على كثرتها تؤلف وحدة هي البرهان الصادق على وحدانية خالقها، وتكشف عن قدرته وعلمه وعظمته ورحمته. خالد ربك، ذلك العظيم الجليل، اذ مادام الوجود واحداً، فصانعه لايمكن الاان يكون واحداًايضا. والله من ورائهم محيط»[1]

---

١ — الآية ٢٠ من سورة البروج. ترتبط هذه الآية باحاطة علم الله وقدرته بالكافرين الذين كذبوا بالدين ولكن صدر المتألهين يعمم الآية الى هذا الحد.

و يشير صدر المتألهين فى الصفحات ٩٩ و ١٠٠ الى ان القرآن يذكر هذا الدليل فى الآيات التي اوردناها.

العلل والاسباب ــ تقويمها ودورها

في الوقت الذى يستند فيه القرآن على «التوحيد في الخلق والأمر» لاينكر العلل والاسباب وادوارها.

«والله انزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد موتها ان في ذلك لآية لقوم يسمعون.»

(النحل: ٦٥)

فجملة **«فاحيا به الارض»** تعنى انه هو الوسيلة التي احيا بها الارض. فيذكرنا بمعرفة الماء لغرض احياء الارض.

ان مايستفاد من القرآن بشأن «العلل والاسباب وادوارها» هو ان الخالق القدير العليم عالم بكل شيء وقادر على كل شيء، ولكنه خلق العالم وفق نظام خاص، وفي النظام عهد بادوار معينة الى بعض المخلوقات ليكون لها دور معين فى ظهور مخلوقات اخرى ولكنها فى قيامها بهذا الدور انما تطيع ماصدر اليها من امر. ان القائمين بتلكالادوار يؤدونها بغير اي اعتراض و بدون ز يادة او نقصان، ولايتخلفون عن اوامره قيد شعرة:

«...والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره»

(الاعراف: ٥٤)

ان طاقة جاذبية الشمس من حيث اتساع اثرها، تجعلها ذات اثر كبير. ولكن الدور الذى تقوم به انما هو بأمر الخالق كذلك طاقة جاذبية الارض ذات قوة كبيرة، وهى ايضا تخضع لارادة الله وامره ألا

يلاحظون ان اللّه اذا اراد فانه يمنح الطير الصغير قوة يصد بها قوة جاذبية الارض العظيمة، فيبقيه فى كبد السماء ساعات؟

«ألم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن الا اللّه. ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون»

(النحل: ٧٩)

اللّه السبب والمسبب

وعلى ذلك فان نظام العلة والمعلول نظام قوي، وثمين ونافذ، والانسان، على الرغم من انه يستخدم القوى التى وهبها اللّه له ومعرفته بهذا يحقق اعمالا باهرة معجبة، فان عليه ألا يغفل عن قوانين هذا النظام، وان يتحرك ضمن قانون العلة والمعلول، وألا يخرج عن حدوده، والافان سعيه يذهب ادراج الر ياح. ولكن هذا النظام القوى الجبار طوع ارادة اللّه. واذا كان عالم الوجود اطارا متينا يحدد وجود الانسان والمخلوقات الأخرى، فانه ليس كذلك لله خالق الاسباب، لأن اللّه القدير الذى اوجد هذه الاسباب و وهب كلا منها أثره وتأثيره، قادر على ان يمحو فى اية لحظة كل اثر و تأثير:

«قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين. قلنا يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم وارادوا به كيدا فجعلنا هم الأخسرين.»

(الانبياء: ٦٨—٧٠)

وعليه فحيثما يلزم الأمر، فان امرا واحدا وارادة واحدة هي الارادة نفسها التى خلقت العالم و نظامه، تلغي من «النار» طبيعتها «الحارقة».

ألم يبلغ الانسان بعلمه و معرفته اليوم الى الحد الذى يستطيع معه ان يصدر اوامره على الامواج او بالالكترون فيوقف قنبلة حارقة،

صنعها بنفسه، عن العمل؟ فلماذا لايستطيع اللّه ان يلغي عمل شيء صنعه بنفسه و يز يل تأثيره؟

ان العلاقة بين اللّه والعلل والاسباب تذكر على هذا المنوال نفسه فى بعض المذاهب الأخرى فقد جاء فى الاو يانيشاد كنه Kena ذكر حكاية عن «براهما» انه سلب النار قدرتها على الحرق:

«نصر براهما الآلهة فى موقع، واخذ الآلهة يفخرون فى هذا الفتح و يقولون ان النصر والعظمة لنا، فادرك قصد هم وبان امامهم، فلم يعرفوه وقالوا:

ما هذا الكائن العجيب؟
وقالوا للموكل بالنار: انظر ماهذا الكائن
«حسنا» وذهب فى هذه المهمة
هو قال له: من انت؟
فاجابه: انا صاحب النار
ماالقدرة الموجودة فى ذات مثلك؟
انا استطيع ان احرق كل ماهوعلى الارض.
فوضع امامه بعض الحشيش وقال: احرق. فاسرع نحوه
ولكنه لم يستطيع. فرجع وقال:
لم استطع ان افهم ماهذا الكائن العجيب»

اذن، يستطيع براهما ان يسلب صفة الاحراق من النار بحيث انها تعجز حتى عن احراق حشيش يابس.

المعاجز والا حداث الخارقة للعادة في نظر القرآن

بناء على ماذكرنا، فان المعاجز والاحداث الخارقة للعادة تحدث

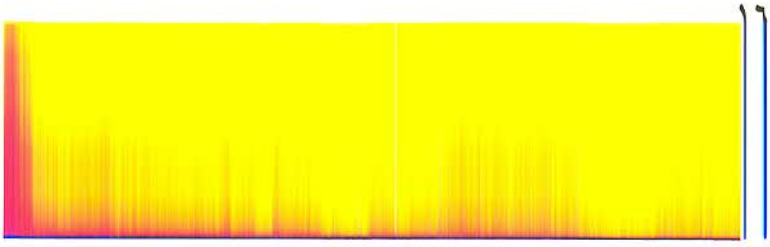

فى العالم، الاانها في منظور القرآن لا تنفي قانون العلة والمعلول اطلاقا، والقانون يقول: «لاظاهرة بغير علة».

كما ان القرآن لايرى في اية معجزة ظاهرة لاعلة لها، بل انها ظاهرة ذات علة، وعلتها مربوطة بارادة اللّه.

ان ظهور المعاجز لا تتعارض مع قانون العلية فحسب، وانما يتفق ظهورها حتى مع ابسط قوانين العلة والمعلول فى قيمتها العلمية والعملية، وذلك لأن الانسان فى تقويمه القوانين العلمية والتجر يبية لنظام العلية الطبيعية التى اكتشفها، لايجلس بانتظار اكتشاف قوانين طبيعية مطلقة ثابتة. ان الذين لهم علاقة بالعلوم التجر يبية المتقدمة يعلمون ان اكثر القوانين المعروفة فى هذه العلوم باسم القوانين الطبيعية ينطوي تحت القوانين النسبية، وان علماء الطبيعة الاذكياء والمتضلعين وغير المغرور ين منهم. لايعتبرون هذه القوانين قوانين مطلقة مئة بالمئة ابدا، ولكنهم يستفيدون منها في بحوثهم واستنتا جاتهم العلمية والفنية الى ان يثبت تقدم العلم ان قانونامالااساس علمي له.

وهذا هو حالنا فى حياتنا العادية اليومية، فاننا لانكف عن العمل ونجلس منتظر ين قوانين موثوقاً بها مئة بالمئة.

ان جميع عقلاء العالم يستعملون وسائط النقل المألوفة كالسيارات والقطارات والبواخر والطائرات التى اعدها وهيأها للعمل مهندسون وفنيون ماهرون، و يقودها سائقون ور بابنة منتخبون ومدر بون على الرغم من ان كل مسافر يدرى انه لايستطيع الاعتماد على اى من هؤلاء مئة بالمئة، فان افضل وسيلة نقل مع افضل مهندس وسائق خبير يمكن ان يصيبها فى الطر يق عطل يوردها موارد الهلكة.

كذلك حال العلماء في بحوثهم العلمية، فكل عالم مجرب وخبير

يعلم ان اية تجربة تجرى في ظروف جديدة او بمعدات جديدة يمكن ان توصل الى نتائج جديدة بشأن الطبيعة والكائنات و اكتشاف علاقات جديدة فى الظواهر الطبيعية، بحيث يمكن ان تنسخ بعض القوانين السابقة، والتى يمكن ان يكون واضعها هو العالم نفسه الذي اكتشف القانون الجديد، اوقد تثبت المكتشفات الجديدة ضعف بعض القوانين السابقة في جانب من جوانبها، لأن هناك عوامل وعللا اخرى تتدخل فى التجربة. فى الحالة الأولى يقوم العالم الذي كان يعتمد القانون القديم باعادة النظرفيه و ينقحه بموجب نتائج التجارب الجديدة. وفي الحالة الثانية يظل العالم يعتمد قانونه الى حد ٩٩٩٩٩٩ بالمليون، مثلا، و يستمرفى اعتماده على ذلكالقانون في بحوثه العلمية، هذا مع العلم بأن الحوادث المعجزة او الخارقة للعادة، التي تحدث بارادة اللّه بالنسبة الى الحوادث العادية والطبيعية، ضئيلة جدا من حيث العدد، وقد لا تبلغ الواحد بالمليون. يتضح من هذا ان الاعتراف بحدوث المعاجز بارادة اللّه وامره لا يقلل ابدا من الشأن العلمي والعملي لنظام العلية العادي.

معرفة العلة بعيدا عن الظنون الموهومة

ان من تعاليم القرآن الثمينة فيما يتعلق بالعلل والاسباب وتثمينها واهميتها هو انه عند دراسة العلل وميزان تأثيرها ينبغى الاعتماد فقط على العلم، اي المعرفة الواضحة التي لاابهام فيها، وعلى البينة، اي الدليل الكاشف الذي يزيل الابهام، و ليس على التصورات الواهية التي لا اساس لها، لأن الاعتقاد الواهي بالعوامل الفيزيائية الخيالية يكون سببا في تخلف العلم والصناعة والحرمان من زيادة الاستفادة من الطبيعة، كما

هي الحال بالنسبة لما ابتلي به الانسان قرونا طويلة حول «المرض والعلاج» اذ انه لم يكن يبذل جهده للتعرف عليها بالطرق العلمية الصحيحة، او كما كان اعتقاده الواهي بالنجوم و تأثيراتها الغامضة على البشر، بحيث انه استخدم علم الفلك والادوات المستعملة فيه، كالاسطرلاب للنظر فى طوالع ابناء البشر، الأمر الذى كان عقبة في طريق تحرك هذا العلم.

اما الاعتقادات الواهية بتأثير العوامل الخيالية في ميدان ماوراء الطبيعة فاكثر من ذلك بكثير وهي تحرف الانسان عن اهم اصل من اصول الدين وهو التوحيد، وتلقيه في احضان الشرك الخطرة. ولهذا فان القرآن يقطع في آياته بخصوص العلل والاسباب الميتافيزيقية بضرورة تجنب الاعتماد على اي شكل من اشكال الظن والتخمين:

«ومالهم به من علم ان يتبعون الاالظن وان الظن لايغني عن الحق شيئا.»

«النجم: ٢٨»

«ان هي الا اسماء سميتموها انتم و آباؤكم ما انزل الله بها من سلطان. ان يتبعون الاالظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى.»

(النجم: ٢٣)

بل عليهم ان يعتمدوا العلم، اي ان يستندوا الى ماهو بين وواضح لالبس فيه، فيكون برهانا وسلطانا و بينة:

«وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا او نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين».

(البقرة: ١١١)

«قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هوالغني له مافي السموات ومافي الارض ان عندكم من سلطان بهذا اتقولون على الله مالا تعلمون.»

(يونس: ٦٨)

«قل انى على بينة من ربى.»

(الانعام: ٥٧)

ان واحدة من العلل التى جعلها اللّه موثرة فى اعمال الانسان هي «الدعاء» وهى ان يتوجه المرء بكليته الى اللّه، فيناجيه و يكشف له عن اسراره و يسترحمه و يطلب منه تحقيق حاجاته و يستعينه على قضائها. صحيح ان اللّه عليم بكل شيء، و يعلم اسرار الناس وحاجاتهم، ولكن مثلما ان الانسان قد وضع نظاما للعمل والسعي وناتج العمل والسعى والفائدة المقررة، وان الذى لايعمل لايأكل، كذلك هي علاقة الانسان باللّه والتى ينظمها «الدعاء والاستجابة»:

«واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداع اذا دعان فليستجيبوالي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون.»

(البقرة: ١٨٦)

وليس لأحد ان يقول: «وهل دعاؤنا يغير ارادة اللّه، لكي يطلب منا ان ندعوه ونرفع حاجاتنا اليه، ان ارادة اللّه لا تقبل التغيير؟»

هذا السؤال يشبه السؤال عن السعى والعمل من جهة، والقضاء والقدر من جهة اخرى، والبحوث المسهبة التي اجر يت حول الجبر والتفو يض، والأمر بين الامر ين.

فهناك ايضا قيل: «أليس كل ما كتبه اللّه على الانسان قد قرره منذ الأزل؟ أم ان ماقرره اللّه منذ الازل يمكن ان يتغير، فيطلب منه السعى والعمل؟»اذا كانت تلك البحوث قد توصلت الى ان للسعى والعمل تأثيرهما، وان اللّه قد اراد من الازل ان يقوم الانسان بمحض اختياره بكذا و بكذا، وان هذا القول قد وضع حلا لذلك السؤال، فهنا ايضا نصل الى النتيجة نفسها، بالقول بأن اللّه ازلي وارادته ايضا ازلية

غير قابلة للتغيير، غير ان تلك الارادة الازلية غير القابلة للتغيير هي نفسها قد قررت ان جانبا كبيرا من عالم الوجود، اي جانب الطبيعة، بدلا من ان يكون في حالة «كينونة» يكون في حالة «صيرورة» دائمة. ففي هذا الجانب تحصل تطورات آنية وتظهر ظواهر جديدة بتأثير من عوامل سابقة، ومن ذلك، وفي بعض الاحيان، عملك ودعاؤك. فهذا وان كان عملا من اعمالك انت، فان له دورا وتأثيرا، ذلك الدور الذي اوكله الله به منذ الازل.

وعليه فان الله ازلي وعلمه وارادته ازليان ايضا، ولكن في الوقت نفسه تظهر ظواهر جديدة، وقديكون لك انت، اولارادتك، او لعملك، أولدعائك اثر ودور فى ذلك.

«يسأله من في السموات والارض كل يوم هوفي شأن»

(الرحمن: ٢٩)

فاذا وقعت بين مخالب البلايا فلا تيأس، ولا تترك مساعيك، بل تحرك وادع الله، لأنك لن تستطيع ان تقطع جازما بأن لاطر يق هناك للخلاص من البلاء. لان الله «كل يوم هو في شأن» فانى لك ان تجزم مئة بالمئة انك قد خسرت المعركة، فلعل غدا يأتيك بالجديد.

ان في القرآن نماذج عديدة لحوادث تستجد بخلاف ماكان الانسان يتوقع، مثل طلب موسى (ع) العون:

«قال رب اشرح لي صدري و يسرلي امري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي...»

«طه: ٢٥—٢٨»

وطلب زكر يا ولدا:

«اذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب انى وهن العظم مني واشتعل

الرأس شيبا ولم اكن بد عائكرب شقيا واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنكوليا.»

(مريم: ٣–٥)

يتضح جليا من دراسة هذه النماذج ان القرآن يرى «الدعاء» نفسه علة وسببا مؤثرا، كغيره من العلل والاسباب. أي ان اللّه مثلما وضع فى نظام عليته ادوارا على عاتق النور، والحرارة، والكهرباء والجاذبية، وغيرها، وعلى النبات الفلاني، او التركيب الكيمياوى الفلانى ان يكون علاجا للداء الفلاني، وضع كذلكدورا بعهده الدعاء الحائز على الشرائط، وجعله مؤثرا في قضاء حاجات الانسان. ان هذا التأثير لاينحصر في الأثار النفسية الايحائية. بديهي ان للدعاء اثاره النفسية الكثيرة ايضا، فهو يحيي الامل، و يقوي الأرادة، و يوقظ في الانسان كثيراًمن القوى الهاجعة، ويحمله على بذل المز يد من السعي والجهد بما لم يكن يتوقعه من نفسه، ولكن التأثير الذي يراه القرآن في الدعاء يتجاوز هذه الامور، لأن الدعاء في نظر القرآن سبب قائم بذاته، ولايلزم ان يكون تأثيره محصورا في الآثار النفسية. وقد ورد ذكر اهمية الدعاء فى كتب الاديان الاخرى على منوال لايختلف كثيرا عما ذكر، واعتبر عاملا مؤثرافي عمل الانسان في العالم.وليس هذا في الكتب الدينية الساميّة فحسب، بل وفي الكتب الدينية الآر ية ايضا. فقد جاء فى «الافستا»:

«يامزدا آهورا، حقق آمال الحكماء الذين رأيت جدارتهم في الحق وحسن السيرة، واقض حاجاتهم، لاني اعلم ان الكلام والدعاء للخلاص مؤثر لديك ونافع»

(الافستا: ٣٤ البند ١٠)

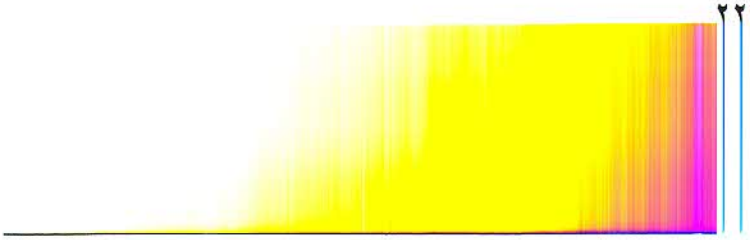

ان الاختلاف الرئيس حول الدعاء فى القرآن وفي الكتب الدينية الأخرى هو ان الدعاء في تلك الكتب لا يختص بالخالق وحده، اذ اننا كثيرا مانقرأ فى الافستا، مثلا، عبارات مثل:

«ياآهور مزدا، يا اردیبهشت، يا بهمن، ينبغي ألا نزعجكم بطلبنا الخلق الحسن الذى نتمناه منكم. علينا ان نجتهد لكي ننشد عند اعتابكم نشيد حمدنا، فانتم الذين تقضون، قبل غيركم، حاجات الناس، وتنيلونهم عالم المعنويات.»

(الافستا: ٣٤ البند ٩)

غير ان القرآن يقصر توجيه الدعاء على الله، و يؤكد كثيرا على ان نرفع ايدينا للدعاء متوجهين اليه فقط، وان نتحرز كثيرا في التوجه الى غيره بالدعاء، فالآخرون كلهم عبيده ولايملكون من دونه شيئا يقرونه، او يهبونه، او يمنعونه:

«من ذاالذي يشفع عنده الا بأذنه»

(البقرة: ٢٥٥)

التوحيد في العبادات

سبق ان قلنا ان القرآن يولى اهتماما كبيرا فى توكيد «التوحيد فى العبادة» كنتيجة منطقية للتوحيد فى الخلق والأمر. فبعد ان اتضح انه ليس هناك في هذا العالم، سواءمن حيث خلقه او من حيث ادارته وتدبيره، أحد غير الله يقوم بالأمر، اي ان العالم لايد له في الدور الذي يقوم به، وان الاشياء لا تقوم بالادوار الموكلة اليها الابأمر من «خالق الادوار»، وبعد ان اتضح ان مصادر التأثير فى العالم، الشمس، والقمر، والنجوم، والسحاب، والر يح، والمطر، والرعد، والبرق، والماء،

والتراب، الشياطين والملائكة و... و... جميعها تأتمر بأمره، فما معنى الوقوف للحمد والثناء والعبادة امام العبيد والخدام والصور والتماثيل؟

«يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون.»

(البقرة: ٢٠—٢١)

«وجعلوا لله شركاء الجن وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والارض انى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم. ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل»

(الانعام: ١٠١—١٠٣)

«ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس والقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون.»

(حم: ٣٧)

«ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا اشد حبا لله»

(البقرة: ١٦٥)

«قل اندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا»

(الانعام: ٧١)

واذا كانت العبادة والدعاء في سبيل قضاء الحاجة، فذلك يختص بالله ايضا، لأنه هو وحده القادر على قضاء الحاجات. واذا كانت العبادة والدعاء حب الناقص واسير العشق فى قبال «كمال» الكامل و «جلالة» و «جماله»، فذاك هو الله ايضا، فهو وحده الحقيق بمثل هذا العشق والوله.

«والذين آمنوا اشد حبا لله...»

وعليه الحمد والعبادة والدعاء تكون لله مباشرة.

«الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. اياك

نعبد واياك نستعين».

(الفاتحة: ٢ـ٥)

ان الاعتقاد باله عظيم، اله خالق ،هو الاساس لكل خلق، اله على فوق الجميع، موجود في كثير من الاديان والمذاهب الفلسفية والعرفانية. وفى هذه الاديان والمذاهب يمتزج هذا الاعتقاد باعتقاد آخر هو انه لاوجود لموجود آخر في العالم يضاهي هذا الاله العظيم الخلاق الأول، و بعبارة اخرى لاوجود لرب الارباب. وعلى ذلك يكون «هو» فى هذا الموقع «وحيدا» وليس له «ند». ولكن «توحيد القرآن» لايجد هذا المقدار من «الوحدانية» للّه كافيا. ففى نظر القرآن ان «الخالق الأول» ليس هو «رب الارباب». انه هو اللّه وحسب. ولذلك فان تلك الاديان لا ترى بأسا فى ان يشترك مع الخالق الاول آلهة اخرى في تقبل العبادة وطلب الحاجة والاستعانة والحمد والدعاء. أما في نظر القرآن فان «التوحيد والاعتراف بوحدانية اللّه» لايتحقق الا اذا تحقق اثره العملى فى «التوحيد في العبادة والدعاء والاستعانة والحمد والرجاء».

«الحمد للّه رب العالمين.. اياك نعبد واياك نستعين» ولكي تتبين قيمة التوحيد فى القرآن بصورة أجلى و يزداد ادراك معنى الآيات التوحيدية فى سورة الفاتحة، نلاحظ ماورد فى (الافستا)

«ياأهورا مزدا، بمعونة اردیبهشت الذى يفتح على الاخيار والطيبين، ان ترخص عليّ، انا الذي اتوجه اليك برغبة صادقة، العمارفي عالم الارض والسماء»

(الافستا: ٣٢ البند ٢)

«يا اردیبهشت، انشدلك انت وبهمن ومزدا آهورو سپندارمذ، الذين تز ينون للاطهار والمتدينين افاق السماء الخالدة، بلحن جديد،

نشيد الحمد لكم. وحينما ادعوكم للعون اعينوني»

(الافستا: ٣٢ البند ٣)

«أى اردیبهشت، ارخص الطيبة والفائدة والثواب والسعادة على گشتاسب. أي سپنادارمذ، حقق له طلبه ورجاءه.»

«أي مزدا، ايها الملك، امنح رسولك القدرة لكى يذيع نشيد حمدك»

(الافستا: ٣٣)

صحيح ان الافستا تعتبر «اهور مزدا» هوالاله الكبير الذي منه كل شيء وليس «اهريمن» ولا «كبير الملائكة» اللذين لا تعتبر هما قرينين له، ولكن، كما تلاحظون، عند مايكون الكلام على الحمد والثناء والدعاء والرجاء، فانه يوجه الى «اهورا مزدا» و «بهمن» و «اردیبهشت» و «سپندارمذ» وغيرهم[1]

اما توحيد القرآن فيستنكر الدعاء والاسترحام لغير الله

---

١ — «مزدا» و «اهورا» و «مزدا اهورا» و «اهورا مزدا» كلها اسماء الأله الكبير فى الديانة الزرتشتية، كما ورد فى الافستا، هامش الصفحة ٣٣. كذلك «اهورا مزدا» و «اهور مزدا» و «هرمزد» و «اورمزد» و «ارمزد» و «هرمز» و «هورمزد»: «O harmazd» هو «A huramazda» الرب العليم، الأله الكبير عند الايرانين القدامى والزرد شتيين، وهو خالق الارض والسماء و المخلوقات، وان «امشاسپندان» و «ايزدان» من مخلوقاته ايضا، وهو القدرة والعلم ومنبع الخير والصدق والتقدس والتقوى. (معجم معين: ٥):

بهمن =«الأول من كبار الملائكة الذى يمثل الفكر الطيب والحكمة والعلم عند اهورا مزدا، و بعهدته تعليم الانسان القول الحسن» (الافستا: ٣٢ هامش)

اردیبهشت =«الثانى من كبار الملائكة الذى يمثل الصدق والطهارة عند اهورا مزدا فى عالم السماء، وعلى عاتقه حراسة النار فى الارض.» (الافستا: ٣٢هامش)

سپندارمذ =«الرابع من كبار الملائكة، و يعنى التقوى والتواضع. هذا الملك يمثل فى عالم السماء الحب والصبر والتواضع عند اهورا مزدا، وفى عالم التراب هو حارس الارض والخضرة والعمار. واذ حسبوه انثى فقد جعلوه ابنة اهورا مزدا تحرض الناس على الزراعة وعمران الارض، بمثلما قالوا عن «آذر» انه ابن اهورا مزدا للتقدير و التعظيم.» (الافستا: ٣٢ هامش).

استنكارا شديدا.

التوحيد في الولاء والطاعة[١]

الطاعة فى نظر القرآن طاعتان:

١ــ طاعة الذين لهم حق الولاية علينا. فرعاية مصلحتنا والمصلحة العامة، او رعاية المشاعر الانسانية الطاهرة توجب علينا اطاعتهم، مثل اطاعة النبي والامام او اولي الأمر والقادة الذين بلغوا بأمر الرسول والامام بحسب الموازين المعتبرة اثناء غيبة الامام،ومثل اطاعة الوالدين...

ان شرط هذا النوع من الطاعة هو ان لايخرج اصحاب الأمر عن حدود العدل والقانون وان على المطيع عند ما يتلقى أمراًان يزنه و يقدره، فاذا رآه مخالفا للعدل والقانون، فعليه عدم اطاعته، ولهذا فان هذا النوع من الطاعة ليس طاعة مطلقة، وليس فيه شيء من «التضحية» و «الضياع».

٢ــ الطاعة العمياء التى تشمل التضحية والتسليم بدون قيد ولاشرط بازاء الأمر الصادر الى المأمور. وهذا النوع من الطاعة هو «العبودية» وهي، كما جاء في القرآن مقتصرة على الله دون غيره من خلقه:

«اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله، والمسيح ابن مريم

١ــ ان التوحيد في الولاء والطاعة من اهم جوانب التوحيد الاسلامي،له تأثير كبير في النظام الاجتماعي والاقتصادي في المجتمع الاسلامي.

اننا فى هذا البحث اقتصرنا على بيان هذا الجانب من التوحيد الاسلامى. اما البحث فى جوانب التوحيد الأخرى وآثاره المختلفة في حياة الانسان، فنوكلها الى البحوث الخاصة بـ «النظام الاجتماعى» و «النظام الاقتصادى» و «النظام التربوى» في الأسلام .

وماامروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الاهو سبحانه عما يشركون.»

(التوبة: ٣١)

يروى محمد بن يعقوب الكليني (-٣٢٩هـق)فى الكافى، عن ابى بصير، يقول سألته (اى الامام الصادق عليه السلام) عن «اتخذوا احبارهم و رهبانهم اربابا من دون اللّه» فقال انهم لم يدعوهم الى عبادتهم، و حتى لودعوهم الىٰ ذلك لما استجابوا، ولكنهم حللوا لهم حراما وحرموا عليهم حلالا، فاصبحوا يعبدونهم وهم لايعلمون.

(الكافي: ٢/٥٣)

يؤيد مفسرو الشيعة هذا الموضوع في تفسيرهم لهذه الآية و يذكرون هذه الرواية نفسها.

اما فخر الدين الرازى (٤٣/٤ — ٦٠٦هـق)يقول في تفسيره الكبير بخصوص هذه الآية : «اعلم أن اللّه سبحانه وتعالى بقوله: «اتخذوا...» وسم اليهود والنصارى بنوع من الشرك. فى هذه الآية مسائل عدة.

المسألة الأولى:...

المسألة الثانية: يقول اكثر المفسرين عن المقصود بكلمة «اربابا» الواردة فى الآية ليس انهم كانوا يعتقدون في علماء دينهم وزهادهم فى الدنيا انهم آلهة العالم، بل المقصود هوانهم اكانوا يطيعونهم طاعة عمياء بغير جدال.

روي ان عدي بن حاتم[1] كان مسيحيا. وفى يوم ما حضر مجلس الرسول(ص) حين كان يقرأ سورة التوبة ووصل الى هذه الآية. يقول

---

١ — ٦٨ هـ. من اصحاب الرسول (ص) قدم المدينة وأسلم.

عدى: قلت للنبي: اننا لانعبد هم فقال الرسول(ص): ألم يكونوا يحرمون حلال اللّه، وكنتم تتبعونهم في ذلك؟ قلت: بلى. فقال: ذلكم هو عبادتهم يقول ربيع: سألت ابا العالية: وكيف كان هذا التأليه (تآليه الاحبار والرهبان) عند بنى اسرائيل؟ فقال: كثيرا ما كان هؤلاء يجدون في كتاب اللّه مايخالف اقوال الرهبان والاحبار، فكانوا يتقبلون اقوالهم، ولايقبلون ما كان فى كتاب اللّه تعالى...»

(التفسير الكبير: ٣٦ــ ١٦:٣٧)

التسليم بامراللّه ووحيه وتجنب التفرقة في صفوف الموحدين

ان الايمان بالتوحيد والتسليم له والطاعة العمياء توجب على عباداللّه ان يبادروا الى التسليم بحكم اللّه ووحيه، كلما تعلق الامر بالمسائل الدينية الربانية والى تجنب و جهات النظر الخاصة والآراء الفردية، لكي تبقى وحدتهم ولئلا يصيبهم الضعف جراء تكتلاتهم المذهبية الداخليه.

يقول القرآن بهذا الخصوص: **«وليحكم اهل الانجيل بما انزل اللّه فيه ومن لم يحكم بما انزل اللّه فاولئك هم الفاسقون. وانزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما انزل اللّه ولا تتبع اهواءهم عما جاءك من الحق. لكل جعلنا منكم شرعة و منها جاً ولوشاء اللّه لجعلكم امة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم. فاستبقوا الخيرات الى اللّه مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون.»** [1]

(المائدة: ٤٧ــ٥٠)

١ــ ان الأيات ١٢٠ و ١٤٥ من سورة البقرة، والأية ٧٧ من سورة التوبة، والايات ٥٦ و ١١٩ من سورة الانعام والأية ٣٨ من سورة الرعد، والآية ٤٣من سورة الفرقان، والآية ٥٠ من سورة الشعراء، والآية ٢٩ من سورة الروم والآية ٢٦ من سورة ص، والآيتان ٩ و ١٥ من سورة الشورى: والآيتان ١٨ و ٢٣ من سورة الجاثية، والآية ١٤ من سورة محمد، والأية ٢ من سورة النجم تخص هذا الباب ايضا.

يعرض القرآن فى هذه الآيات طريقا منطقيا ومعقولا لتجنب التفرقة غير المحمودة بين اتباع الوحي لكي يلتزمه جميع الذين يؤمنون بالله وبطريق الانبياء، فيتركوا جانبا كل جدل ومخاصمة وتعصب مهما يكن استنباط الافراد او الجماعات من الوحي الألهي، عليهم ان يهرعوا نحو الخيرات والاعمال الصالحات، فيكون تسابق عام في بلوغ الخير والصلاح بمكان التنازع غير المثمر المؤدي الى ضياع اصحاب الاديان الألهية وهم يختلفون في «ماهو الحق؟» الذي يجب ان يوكلوه الى النصوص الدينية ذات الارتباط الواضح بالوحي. فاذا ماظهر الخلاف في ذلك ايضا، فيمكن ارجاء حل مسألة «ماهو الحق ومع من؟» الى يوم تزاح فيه جميع الستائر، حيث يكشف المرسل من الوحي الغموض عن جميع المسائل المختلف فيها.

يبدو ان الطريق الوحيد للاتحاد الصحيح بين اتباع الهدى هو هذا، وفى غير هذه الحالة لايكون النزاع مقصورا على اتباع هذا النبي وذاك النبي حيث يأخذ الواحد بخناق الآخر، و يتحول الطريق الألهى اللاحب الى متاهة مضلة فحسب، بل ان اتباع النبى الواحد والكتاب الواحد يتخاصمون على هذا الاجتهاد او ذاك وهذا المذهب او ذاك ، بل حتى ان اتباع المذهب الواحد يختلفون في التزام هذا الجناح او ذاك ، واتباع الجناح الواحد قديختلفون في الاخذ بهذا المرجع او ذاك ، وهكذا يكونون قد القوا بأنفسهم فى ميدان ملوث مظلم بجدالهم، ولايبقى من كل ذلكالنور الأخاذ الساطع من مكتب الوحي سوى بصيص ضعيف.

وعليه فان القرآن الذي يجعل من التوحيد في العبادة محور العقيدة ونظام العمل في دينه يؤكد على ان هذه الحرب بين الفرق الاثنتين والسبعين انحراف عن «التوحيد الجامع»،ويمنع كل تصادم في

الآراء والعقائد الدينية الا اذا كان في بحوث هدفها الايضاح وخالية من كل ظلم وجدال انانى وتعصب، فيعتبره دليلا على «عبادة الذات» التى هي، بغير شك ، ضد «عبادة اللّه» وتكون عقبة كبيرة في طريق «توحيد النظم الاجتماعية المبني على محور الوحي».

التوحيد الذاتى «لامثيل له ولانظير»

اللّه الذي ليس كمثلة شيء

«أم اتخذوا من دونه اولياء فاللّه هو الولي وهويحيي الموتى وهوعلى كل شيء قدير. و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى اللّه ذلكم اللّه ربي عليه توكلت واليه انيب. فاطر السموات والأرض، جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السموات والارض يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر انه بكل شيء عليم.»

(الشورى: ٨—١٢)

تؤكد هذه الآيات مرة اخرى ان اللّه هو المهيمن على كل شيء فى الكون، و يقول: ليس كمثله شيء، اي ان اللّه موجود لايشبهه شيء.

ولانظير له:

«قل هو اللّه احد. اللّه الصمد. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد»

(سورة الاخلاص)

المقصود من «لامثيل له» و «لانظيرله»

يعتقد مفكرو الاسلام العظام ان المقصود من «لامثيل له» و

«لانظير له» هو ان الله هو «التوحيد الذاتى» الذى ورد فى الفلسفة والروحانيات.

ان ابسط توضيح للتوحيد الذاتى هو مايلي:

عند ما نقول «ان الله واحد» نعني «ان الله ذات منفردة لانظير لها ولايمكن وصفها بالتعدد» اي لايمكن حتى بالافتراض تصور نموذجين او فردين لله. وعليه فان الوحدانية تعنى ان التفرد أو اللا تعدد كامن في ذاته وان التوحيد ملازم لذاته.

وهكذا، لادراك مفهوم «وحدانية الله» يكفى ان نعرفه حق المعرفة، وان يكون لكلمة «الله» في تصورنا معنى صحيح. فاذا عرفنا المعنى الصحيح والواقعي لتلك الكلمة، فسنصل حتما الى استنتاج انه «اذا كان ثمة اله، فلا بد ان يكون واحدا ولايمكن ان يكون متعددا، لأن ذاته لا تتقبل الثنائية او التعددية.» و لتوضيح ذلك نضرب المثل التالى:

لنفترض اننا ننظر الى خط وهمى فى الفضاء. نفترض ان هذا الخط يمتد من طرفيه الى ما لانهاية. ثم نتصور خطا آخر على بعد متر واحد من الخط الاول و يوازيه ويمتد طرفاه كذلك الى مالانهاية هل نجد في اصل افتراض وجود هذين الخطين المفصولين بمسافة المتر الواحد أي تناقض أو أية مشكلة؟ كلا. ولهذا فقد وصف الخط الموازى بقولهم: يتوازى الخطان اذا تساوى البعد بين اية نقطتين متقابلتين مفروضتين عليهما، وانهما لايتلاقيان مهما امتدا.

فبصرف النظر عن البحوث المتنوعة الواردة عن صحة هذا التعريف، وعن كونه نسبياً أو مطلقاً والى آخره، فان الأمر الواضح فيه مبدئيا هو امكان افتراض هذين الخطين.

والأن فلننظر الى جسم امامنا، ولنفرض ان هذا الجسم يكبر فى

جميع ابعاده، فى العرض والطول والارتفاع، و يكبر و يكبر الى مالانهاية فى جميع الابعاد. فهل نستطيع ان نتصور جسما آخر معه يكبر و يكبر و يكبر الى مالانهاية ايضا؟ كلا. لأن ذلك الجسم المفروض اولا قد شغل الفضاء كله، ولم يبق فراغا ليشغله الجسم الثاني، الا اذا حل الجسم الاول فى الجسم الثانى حلولا كاملا. و لكن أيمكن ان يحل جسم في جسم ثان بذاته وليس بين ذراته؟ وعليه يستحيل ان نفترض فى الفضاء وجود جسمين لانهاية لابعاد هما من جميع الجهات. فكل جسم تفرضه فى الفضاء بذاك الوصف هوالجسم الأول.

فى هذه الفرضية دار الكلام على «جسم لانهاية له»، تلك الفرضية التى يعني تصورها امكان وجود جسم آخر نظير الجسم الأول. ولكن اذا افترضنا وجودا لامتناهيا آخر غير الجسم، كروح لانهاية لها، مثلا، تحل فى ذلك الجسم غير المتناهى، فان هذين لايتنافيان.

والآن فلنسحب الفرضية على موجود لانهاية له فى جميع الجهات و بكل الابعاد المفروضة للكون فهل يمكن افتراض موجود آخر او اكثر مثله معه؟ كلا، اذ اننا اذا افترضنا وجود اثنين، فلابد ان يكون احدهما غير الآخر، وعلى هذايكون كل منهما «نهاية» للآخر، وعليه، لن يكون اى منهما، «لانهاية له».

وهكذا نثبت ان اللّه ذات لاشبيه لها ولانظير. ذات لا تقبل الثنائية ولا التعددية[1]

---

١ — صدر المتألهين فى كتابه «الشواهد الربوبية» يورد هذا الدليل وحده لاثبات الوحد انية و يقول عنه:

«الا شراق الثانى فى وحدانية الواجب تعالى.

ان لنا باعلام الهى برهانا عرشيا على هذا المطلب الشريف الذى هو الوجهة الكبرى لأهل السلوك محكما فى سماء وثاقته...»

التوحيد العددي

يمكن بالتدقيق المناسب فى معنى التوحيد و وحدانية اللّه ان يدرك المرء جيدا ان توحيد اللّه ليس وحدة «عددية»، وذلك لأن الوحدة العددية، وهى تعني «الواحدية»، توهم بامكان افتراض وجود «واحد» آخر، ولكنه غير موجود لاسباب. وهذا المعنى ممكن في حالة من لايتناقض وجوده مع «التعددية» اى لايستحيل افتراض وجود اثنين او اكثر منه.

يقول صدر المتألهين بهذا الشأن:

«...لأن وحدته ليست عددية من جنس وحدات الموجودات حتى يحصل من تكرارها الاعداد بل وحدة حقيقية لامكافىء لها في الوجود...»

(الشواهد: ٤٨)

وقد جاء فى كتاب عرشية ابن حكيم الآلهى، فى الصفحة ٢٢٢ بحث موجز بهذا الخصوص لافت للنظر تحت عنوان «قاعدة مشرقية» يحسن بذوى العلاقة بالموضوع الرجوع اليه للاستزاده من الفائدة والمتعة.

الوحدة الشخصية

ترد الوحدة الشخصية غالبا فى قبال الوحدة الصنفية او النوعية او الجنسية. و «هوشنك» والكناري ذو الالحان الجميلة الذي يزامله تجمعهما وحدة جنسية وهي الوحدة الحيوانية، ولكنهما منفصلان من حيث الوحدة النوعية او الصنفية او الشخصية. ولكن هوشنك وجاره الزنجى الاسود تجمعهما وحدة جنسية و وحدة نوعية، فكلاهما انسان، ولكن لاتجمعهما الوحدة الصنفية لأن هوشنك ابيض والزنجى اسود،

ولاتجمعهما وحدة شخصية لأن لكل منهما شخصيته المنفصلة المتميزة. ولكن هوشنك واخوه التوأم احمد تجمعهما وحدة جنسية ونوعية وصنفية، لأن كليهما انسان ومن العنصر الابيض، ومن ابوين واحدين، بل قد تكون هيئتاهما وملامحهما ونفسيتاهما متشابهة ايضا، فكأنهما تفاحة واحدة شطرت شطرين، ولكن لاتجمعهما وحدة شخصية، لانهما اثنان.

فالوحدة الشخصية، بالمفهوم الذى قلناه، تسير مع الوحدة العددية، وعليه فلا يمكن النظر الى اللّه على انه «شخص» له «وحدة شخصية». ولكن من حيث النظرة الفلسفية يكون للوحدة الشخصية معنى دقيق وطريف يوجد في اللّه ولايمكن ألاّ يوجد فيه. فمن هذا المنظور ألفلسفي الدقيق نقول انه لابد ان يكون لكل واقع عيني «وحدة شخصية» اي انه من كل واقع يمكن تشخيص عين آخر سواء أكان ذلك الواقع من حيث ذاته قابلا للثنائية أم لم يكن. فاذا كان من حيث الذات غير قابل للثنائة. فله وحدة شخصية ولايستوجب تحقيق ذلك اى عامل خارجى. اما اذا كان من حيث الذات قابلا للثنائية، وجب ان يضاف اليه عامل او عوامل اخرى حتى تكون له «وحدة شخصية» و بهذا المعنى نقول ان للّه «وحدة شخصية» لأنه ذات معلومة يمكن تمييزها عن واقعيات اخرى، وان «وحدة شخصيته» لازمة لذاته، وعليه فان تشخيصه يكون بذاته، بينما لايكون تشخيص الموجودات الأخرى و وحدة شخصيتها فى ذواتها وذلك لأن اللّه هو الذى اعطاها تشخصها و وحدة شخصيتها.

يقول صدر المتألهين في هذا:

«ولا تشخص له بغير ذاته... ولابرهان عليه الا ذاته، فشهد بذاته على ذاته وعلى وحدانية ذاته كما قال شهد اللّه انه لا اله الا هو لأن

وحدته ليست وحدة شخصية توجّه بفرد من طبيعته، ولا نوعيته ولا جنسية... ولاغير ذلك من الوحدات النسبية... **بل وحدته وحدة** اخرى مجهولة الكنه كذاته تعالى، الا ان وحدته اصل كل الواحدات، كما ان وجوده اصل كل الوجودات، فلا ثاني له...»

(العرشية: ٢٢٠ و ٢٢١)

وجه آخر من «التوحيد الذاتى»

وهو نفي التركيب، ونفي الصفة الزائدة على الذات،ونفي تعدد الصفات، او «توحيد الصفات»

وهذا الوجه هو: «انه ذات واحدة كلية غير مجزأة» فلا ذاته مركبة من اجزاء متنوعة، ولا شخصيته مؤلفة من ذوات وصفات زائدة على ذاته.

النتيجة

فى كتب الفلسفة وعلم الكلام يرد ذكر اربعة انواع من توحيد اللّه: التوحيد الذاتي: والتوحيد الصفاتي، والتوحيد الافعالي والتوحيد العبادي. و من هذه الانواع الاربعة يمكن معرفة التوحيد الافعالي والتوحيد العبادي بسهولة تامة من القرآن، بل ان هذا الكتاب الألهى يستند في مسألة التوحيد على هذين النوعين من التوحيد.

اما التوحيد الذاتى والتوحيد الصفاتى فلا يمكن ربطهما بالقرآن بيسر وسهولة، اذ اننا بدون معرفة البحوث الفلسفية الطريفة فى القرآن، قد لانستطيع العثور حتى على آية واحدة تشير اشارة مباشرة الى مفاهيم التوحيد الدقيقة. ولكن اذا تعمقنافى دراستنا للآيات الفلسفية